﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤﴾ [طه: 134]

## ❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان مقولة المشركين الّتي يتحجَّجون بها في عدم إيمانهم

لمّا ذكرَتِ الآية السّابقة أنّ المشركين يطعنون في الرّسول ﷺ ومُعجزته بما ليس لهم فيه شبهةٌ أصلًا؛ لأنّ الضّلالَ إذا سيطر على عقول المشركين، وهم كذلك جحدوا وعاندوا لِفَرطِ إنكارهم، وإنْ لم يُرسَلْ إليهم رسولٌ قالوا: هلّا أُرسِلَ إلينا رسولٌ، جاءت هذه الآية بذكر مَقولَتِهم الّتي يَتحجَّجون بها في عدم إيمانهم، وما كان لهم فيه نوعُ شبهة، فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ الآية.

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّذِلَّ﴾: الذُّلُّ هو الخضوع والاستكانة والطّواعية واللّين[1]، فهو ضدُّ العزِّ والإباء والصّعوبة والتَّعصّي[2]، والذُّلُّ ذُلّان: ذلّ عن قهر، وذُلّ عن صعوبة[3]، والمَذَلّةُ الضّعفُ والهَوانُ[4]، ويغلب على هذه الجوانب الأذى المادّيّ، فمعنى ﴿نَّذِلَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ أنْ ننكسِرَ ونضعُفَ ونستسلِمَ.

2) ﴿وَنَخۡزَىٰ﴾: يُطلَقُ الخزي في اللّغة على الانكسار الحاصل بحياءٍ أو استِخفافٍ[5]، فيُورِثُ الإبعادَ[6]، يُقال: خزي الرّجلُ؛ أي:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذل).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (ذلل).
(3) الرّاغب، المفردات: (ذل).
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (ذلل).
(5) الرّاغب، المفردات: (خزى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خزو).

لَحِقَه انكِسار، إمّا من نفسه وإمّا من غيره؛ فالّذي يلحقُهُ الحياءُ المُفرِطُ مصدرُهُ الخزاية، والّذي يلحقُهُ من غيره هو ضربٌ مِنَ الاستخفاف، ومصدرُهُ الخِزيُ، يُقالُ: خَزاهُ اللّه؛ أي: أبعَدَهُ ومَقَتَهُ، والاسمُ الخِزيُ، وغالبًا ما يحدثُ الانكسارُ عنِ الخُذلان، لذلك أُطلِقَ على الفضيحة والخذلان الخِزيُ[1]، والمقصود في قول الحقّ ﷻ: ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ ألّا نكونَ في حال خذلانٍ وإبعادٍ[2].

## ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيّنَت هذه الآية اعترافَهم يوم القيامة بأنّهم جاءتهم بيّنةُ ما في الصُّحُف الأُولى، وأنّهم لو أُهلِكوا بعذابٍ مِن قبله لاعتذروا بأنّهم لو أُرسِلَ إليهم رسولٌ لآمنوا قبل أن يَحلَّ بهم الذّلُّ في الدّنيا والخِزيُ في الآخرة، فهاهُم قد جاءهم النّبيُّ ﷺ بالبيّنات، فهلّا آمنوا! أم ينتظرون أن يَحلَّ بهم الهلاكُ، فلا يُقبَلُ لهم اعتذار؟[3].

لو أُهلكوا قبل مجيء النّور لاعتذروا بذلك يوم القيامة، فهلّا آمنوا، وقد جاءتهم البيّنات؟!

## ❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### دلالة الواو في مطلع الآية:

ابتدأت جملةُ ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ﴾ بحرف الواو الّتي تدُلُّ على الاستئناف؛ فهذه الجملة مُستأنَفةٌ لتقرير ما قبلَها من كون القرآن آيةً بيّنةً لا يمكن إنكارُها ببيان أنّهم يَعترفون بها يوم القيامة، ويكون الغرضُ الارتقاءَ في الاستدلال[4]، والتّقريرَ لِما سَبَقَ من توطِئة[5].

الارتقاء في الاستدلال

### سرّ التّعبير بـ ﴿وَلَوْ﴾:

استعملَتِ الآيةُ حرفَ (لو) فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم

امتناع الاعتذار لامتناع الهلاك دون رسول

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (خزي).
(2) الصّاويّ، حاشية على الجلالين: 3/ 59.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 168، وطنطاويّ، الوسيط: 9/ 171.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 346.
(5) طنطاويّ، الوسيط: 9/ 173.

بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾، وحرف (لو) هو حرف امتناع لامتناع[1]؛ أي: امتِناعُ اعتذارِهم لامتناع إهلاكِهم قبل بعث الرّسول، فقدِ امتَنَعَ هلاكُهُم قبل بعثة الرّسول، ولكنّ الاستدلالَ ذَكَرَ هذا الاحتمالَ المُمتَنعَ؛ ليُظهرَ عَوارَ طلب هؤلاء للآيات، فقد جاءهم الرّسولُ فلم يؤمنوا به!

### بلاغة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

الهلاك لا يقع إلّا بعد إقامة الحجّة

تضمّنَتِ الآيةُ: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ جملةً شرطيّةً، دلالتها: لو حلّ بهم الهلاكُ قبل بعثة الرّسول لكان لهم أن يحتجُّوا يوم القيامة، ويعتذروا[2].

وتظهر بلاغة هذه الجملة الشّرطيّة في استبعاد الاحتمال، وذلك لدلالة (لو) على الاحتمال المُستبعَد، والمرادُ أنّ اللّهَ لن يُهلِكَ قومًا دون أنْ يُرسِلَ رسولًا، حتّى لا يَعتذرَ المُعتَذرون بمثل هذا الاعتذار.

### دلالة تتابُع المؤكِّدات في الآية:

تتابعَتِ المُؤكِّدات في الآية، وهي (أنّ) و(اللّام المُزحلقة)، والغرض من ذلك شدّة إنكارهم لهذا الإهلاك، فازداد معهم تأكيدًا.

### دلالة التّعبير بقوله ﴿أَهْلَكْنَٰهُم﴾:

أوسع الألفاظ دلالةً على فناء حياة الكفّار

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ ﴿أَهْلَكْنَٰهُم﴾، ومادّة (هلك) في اللّغة تدُلُّ على الإفناء[3] والإعدام والإماتة[4]، وبذلك يكون الإهلاكُ أوسعَ الألفاظ دلالةً على فناء حياة الكفّار، لكنّ القرآنَ الكريمَ أتى بهذا التّعبير في سياق الشّرط المُمتَنِع وقوعُه؛ لإعلامهم بأنّ ذلك الهلاكَ مُمتَنِعٌ لعدم إرسال الرّسول إليهم، وفي هذا دعوةٌ لهم إلى

(1) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 276.
(2) الصّاويّ، حاشية على الجلالين: 3/ 59.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هلك).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 82.

الإيمان به ﷺ؛ لأنّ الله عدلٌ، لم يُهلِكْهُم قبل إقامة الحجّة، وفيه تهديدٌ ووعيدٌ لكفّار قريش، الّذين بُعِثَ فيهم رسولُ الله يدعوهم إلى توحيد الله، وهم يَصِدّون ويَصُدّون عنه، فهلّا خافوا من استحقاق العذاب والهلاك بعد بعثته إليهم؟

**نكتة إسناد الإهلاك إلى ضمير العظمة:**

يَعظُمُ الإهلاكُ بعظمة صاحبه

أُسنِدَ الإهلاكُ في ﴿أَهْلَكْنَٰهُم﴾ إلى ضمير العظمة، ونكتة ذلك مُعاقَبتُهُم على تكذيبهم بما تقتضيه عظمة الله تعالى[1]، فتكذيب العظيم وعصيانه ليس كعصيان غيره، فهو عصيانٌ وخيمُ العاقبة، ويَعظُمُ الإهلاكُ بعظمة صاحبه.

**معنى الباء في قوله ﴿بِعَذَابٍ﴾:**

تخصيص الإهلاك بالعذاب

دلَّتِ الباءُ في قوله ﴿بِعَذَابٍ﴾ على الآلة[2]، فهي تحدِّدُ نوعَ الإهلاك، فليس إهلاكًا بالموت مرّةً واحدةً مثلًا، وإنّما هو هلاكٌ بعذابٍ شديدٍ بسبب كفرهم وجرائمهم.

**نكتة تنكير ﴿بِعَذَابٍ﴾:**

تهويل العذاب بتنكيره

جاء لفظُ عذاب في الآية ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ﴾ نكرةً، ونكتةُ تنكيره هنا هي التّهويلُ، فإذا لاحظ القارئُ نونَ العظمة، وأنّ الإهلاكَ إهلاكُه، فليَفزَعْ لهول هذا العذاب، لذلك نكَّرَهُ لوضوح ذلك مِن سياقه، فقد زاد هولًا.

**دلالة ﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾:**

القُربُ الزّمنيُّ الشّديدُ

سبق حرفُ ﴿مِّن﴾ لفظَ ﴿قَبْلِهِۦ﴾ في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾، وهو يَحمِلُ معنى ابتداء الغاية، والمقصود هنا هو القرب الشّديد بين عدم إرسال الرّسول والإهلاك؛ ليكونَ هو

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 375.
(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 39.

العلّةَ – دون غيره مِنَ المُؤثِّرات – في الاعتذار، ولينطبِقَ الجوابُ على دعوى الكفّار بطلب الآيات.

**فائدة الظّرفيّة ﴿قَبْلِهِۦ﴾:**

الشّرطُ مُنصَبٌّ على هذه القبليّة لا على الهلاك

وتَظهَرُ فائدةُ الظّرفيّة ﴿قَبْلِهِۦ﴾ في الآية ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ في أنّ الشّرطَ مُنصَبٌّ على هذه القبليّة لا على الهلاك ولا على بعثة الرّسول، فصارت هي الرّابطَ بين الأمرين، وعلّة جواب الكفّار بالاعتذار بعدها.

**سرّ التّعبير بالإضمار في قوله: ﴿قَبْلِهِۦ﴾:**

من قبل القرآن أو من قبل النّبيّ ﷺ

آثرَ التّعبيرَ بالإضمار في ﴿قَبْلِهِۦ﴾ لتعدُّد المراد به، فقد يعود إلى الرّسول ﷺ؛ لأنّ الخطاب للمشركين، فهو حاضِرٌ في الذّهن، وإنْ لم يَجرِ له ذكرٌ في اللّفظ، أو إلى البيّنة[1]؛ وهي القرآن؛ باعتبار قصد البيان فيها[2]، ولا تعارضَ؛ لأنّ مجيءَ هذه البيّنة لا تكونُ إلّا مع إرسال الرّسول[3].

**دلالة اللّام في ﴿لَقَالُواْ﴾:**

لـــزوم اعـتـذار المُهلَكين بعدم إرسال الرّسول

واللّام الّتي في ﴿لَقَالُواْ﴾ هي لام الجواب، وهي الّتي تَربِطُ بين جملة الشّرط وجملة الجواب، وتحمِلُ معنى لزوم الجواب للشّرط؛ أي: ما كانوا مِنَ المُهلَكين إلّا أن يَعتذروا بعدم بعث الرّسول.

**دلالة عدم ذكر زمن القول:**

تـصـوّر مَشـهَـد اعـتـذارهـم لو أهلكَهم الله

لم تذكُرِ الآيةُ زمنَ ذكر مَقولة الكفّار الواردة في قوله: ﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ لدلالة السّياق عليه، فيكون زمنُهُ عند مُشاهَدةِ ألوان العذاب الّتي تَحلُّ بهم، وتَنزِلُ عليهم، أو في يوم القيامة عند إحضارهم للمُحاكَمة والحساب.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 376.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 43.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 279.

### غرض النّداء في قولهم ﴿رَبَّنَا﴾:

النّـــداء للاستعطاف

جاء النّداءُ بـ ﴿رَبَّنَا﴾ في جواب الشّرط ﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾، وغرضُ النّداء هنا هو الاستِعطافُ، حُذِفَ منه حرف النّداء؛ لأنّ المنادَى سميعٌ لكلّ شيءٍ قريبٌ، ولشعور المنادي بقربه في مَوقِف الضّراعة والخضوع والحاجة والاستغاثة، أليس ربًّا للجميع! ولذلك دلالات عميقة.

### نكتة إتيانهم بلفظ الرّبوبيّة، وإضافته إلى ضميرهم:

استعطاف ذي الإحسان لقبول الاعتذار

وقد أتى الكفّار في ندائهم بلفظ الرّبوبيّة ﴿رَبَّنَا﴾، وأضافوه إلى ضميرهم، ونكتة ذلك جليلة، فها هُم الآن يؤمنون بوجود ربٍّ بعد أن كفروا به، وها هُم يشعرون بأنّ لهم ربًّا يَخضعون له ويَتذلَّلون.

فَذِكرُ الرّبِّ في النّداء يدعو للاستعطاف لِما عُرِفَ في الرّبِّ مِنَ الإحسان[1]، ونسبةُ الرّبِّ إلى أنفسهم يدعو لِتقبُّلِ الاعتذار؛ لأنّهم عبيدُهُ في نهاية المَطاف.

وما ذلك إلّا بعد ظهور آية الإهلاك الّتي ألجأتهم إلى الاعتراف، فأين هذا قبل نزول العذاب؟

### سرّ تكرار ﴿لَوۡلَآ﴾:

الاحتجاج والاعتذار بعد فوات الأوان

تكرر استعمالُ ﴿لَوۡلَآ﴾ مرّةً أخرى، في قوله سبحانه: ﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾، بعد سبق ذكرِها في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، ومعناها التّحضيض، وهي مُستعمَلةٌ هنا لمعنى الاحتجاج والاعتذار؛ لأنّه قد فات وقتُ الإرسال[2].

### فائدة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

بيان الاعتذار في شكل شرط امتناع لامتناع

وفائدة التّعبير بجملة الشّرط في قوله: ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ بيانٌ مُبرِّرٌ اعتذارَهُم عمّا صدر عنهم من كفر

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 376.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 347.

وإعراض[1]، فنحن لم يَبلُغْنا وحيٌ، ولم نَعرِفِ الحقَّ، ولو عرفناه لالتزمنا، فنجونا!

**نكتة تقديم شبه الجملة ﴿إِلَيْنَا﴾:**

قدَّمَتِ الآيةُ ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ شبهَ الجملة ﴿إِلَيْنَا﴾ على مُتعلَّقه وهو ﴿رَسُولًا﴾، ونكتةُ التّقديم الاهتمامُ بأنفسهم، لأنّهم وهم يعتذرون، فهَمُّهُم أنفسُهُم، فقدّموا ﴿إِلَيْنَا﴾ زيادةً في إيضاح الاعتذار، والتماسًا له.

اهتمام الكفّار بأنفسهم أوّلًا، وهم يلتمسون الاعتذار

**نكتة تنكير ﴿رَسُولًا﴾:**

وجاءت كلمةُ ﴿رَسُولًا﴾ نكرةً في الآية ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾، ونكتةُ تنكيرها عدمُ الاهتمام بتحديد رسولٍ بعينه ولا النّظرُ في نسبه وجنسه ولسانه، فالمهمّ أنّه رسولٌ من عند الله، وهذا عكس ما يفعلون وقد جاءَتهم البيّنة، إيذاءً للمصطفى بشتّى أقاويل السّوء.

عند الهلاك يبحثون عن أيّ وسيلة نجاة

**معنى الفاء في قوله ﴿فَنَتَّبِعَ﴾:**

والفاء في قوله تعالى ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ﴾ هي فاء التَّسبُّب[2]، فبسبب إرسال الرّسل نتّبعُ آياتِكَ البيّناتِ[3]، وهي جواب لولا التّحضيضيّة[4]، باعتبار تقدير حصول إرسال الرّسل فيما مضى.

بسبب إرسال الرّسل نتّبع آياتِك

**بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ﴾:**

جاء التّعبير عن دخول الكفّار في الإسلام بـ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ﴾، وفي ذلك استعارةٌ؛ حيث استعار اتّباعَ الآيات للالتزام بالإسلام، فالاتّباعُ يُشبهُ الامتثالَ في أنّ المُتَّبِعَ يفعلُ مثلما يَفعلُ مَتبوعُهُ، وأنّ الآياتِ صارَت كالدّليل تُتَّبعُ كما يُتَّبعُ الدّليلُ.

دعواهم التزام الإسلام كالتزام التّابع لِمتبوعِهِ

(1) طنطاويّ، الوسيط: 9/ 173.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 376.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 126، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4817.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 347.

وتكمن بلاغة الاستعارة هنا في استيعاب الكفّار لمعنى الإسلام، وإعلانهم الالتزامَ الكامِلَ به دون مُعارَضة أو مُحاجَجَةٍ، كما كانوا يفعلون من قبلُ.

### دلالة التّعبير بالمضارع في ﴿فَنَتَّبِعَ﴾:

اتّباعهم الآيات اضطرارًا لا اختياراً اختيارًا

دلّ التّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَتِكَ﴾؛ للدّلالة على أنّ اتّباعَهُمُ الآياتِ أمرٌ سيَحدثُ إذا ما جاء الرّسول، فلن يَحدُثَ قبلَ ذلك، وهو ما يُشعِرُ بأصالة الكفر لديهم، وأنّ اتّباعَهُم للرّسول إنّما هو إلجاء.

### دلالة التّعبير بالآيات دون غيرها:

حجّيّة الآيات الشّرعيّة والكونيّة معًا

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالآيات في قوله تعالى: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَتِكَ﴾؛ لدلالتها على الآيات الشّرعيّةِ التّكليفيّةِ أو الآيات الكونيّةِ الّتي تُوجِبُ خضوعَهم للّه ربِّ العالَمين بما تدُلُّ عليه من آثار قُدرته[1].

### نكتة إضافة الآيات إلى ضمير العظمة:

الآيات هي آيات الله، وليسَت آياتِ الرّسول

أُضيفَتِ الآياتُ في قوله: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَتِكَ﴾ إلى ضمير العظمة، ونكتة ذلك الإقرار بأنّ الآياتِ هي آياتُ اللّه، وليسَت آياتِ الرّسول، عكس ما كانوا يستهزؤون بالرّسول، ويقولون: إنّه تقوَّلَ الأقاويلَ، فالآياتُ آياتُكَ فلَزِمَ اتّباعُها.

### معنى ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن قَبْلِ﴾:

حصول الالتزام بالآيات قبيل الهلاك بلا فسحة

ذكرَتِ الآيةُ زمنَ الاتّباع بضميمة حرف ﴿مِن﴾ إلى قبل، ومعنى حرف ﴿مِن﴾ هو ابتداء الغاية، وله خصوصيّةٌ في هذه الآية، وهي إلزامُهُم أنفسَهم بالاتّباع دَفعًا للهلاك؛ حتّى إنّه لا يَستغرِقُ زمانًا قبل الخزي والذُّلّ[2]، ممّا يُشعِرُ بأنّهم لا يؤمنون إلّا إلجاءً.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4817.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 376.

### دلالة التّعبير بالمصدر المُؤوّل:

المصدريّة والدّلالة على الحدث

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالمصدر المُؤوَّل في قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾، وهو مُكوَّنٌ من ﴿أَن﴾ المصدريّة[1]، وتُقدَّرُ هي والفعل بعدها بالمصدر المُؤوَّل دون المصدر الصّريح: ذُلِّنا وخِزْيِنا؛ وذلك لِما للفعل من دلالة على الحدث مع مراعاة الزّمن.

### دلالة مَوقِع جملة ﴿أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾:

لا يؤمنون إلّا مَخافةَ الذُّلّ والخزي

تقعُ جملةُ ﴿أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ مَوقِعَ المضاف إليه لـ ﴿قَبْلِ﴾، ويكون تقديرُها: مِن قَبْلِ ذُلِّنا وخِزْيِنا، وللمضاف إليه هنا دلالته، فهو يُعَرِّفُ المضافَ، فيُحَدِّدُ المقصودَ مِن كلّ ما سبق؛ إنّه الخِزيُ والذّلُّ يَخافُهُ الكفّار، فيلجِئُهم إلى اتّباع الرّسول.

### سرّ التّعبير بالذُّلّ والخزي عنِ الهلاك:

الخذلان والاستسلام أسوأ ما يفِرُّ منه الكفّار

جاء التّعبير عنِ الهلاك بـ (الذّلّ والخزي) في قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ لدلالاتٍ نفسيّةٍ، فمعنى الذُّلِّ هو الانكسار والضّعف والاستسلام، ومعنى الخِزي هو الخذلان والإبعاد.

ولأنّ في استعمال الذُّلّ والخِزي التّركيزَ على أسوأ ما يخافُهُ الكفّار؛ فكِلا المعنيين صعبُ التَّحَمُّل، خاصّةً لِمَن ألِفَ العِزّ، واستشعرَ الكمالَ والقوّةَ، ومَن ألِفَ المَنزِلةَ والنُّصرةَ؛ لذلك فقد أعلن الكفّار عمّا يفزعون منه.

كما أنّ ذِكرَ الذُّلِّ والخِزي في هذا المَوضِع، هو تذكيرٌ باستباحة الكفّار حمى الرّسول، فبَدَلَ أن يَعزّزُوه أضعفوا جانبَه، وأرادوا انكسارَهُ، وبَدَلَ أن يَنصروه أرادوا أن يُخزوه ويُبعِدوه، فجاء منهُمُ التَّعوّذُ مِنَ الذّنبَين باتّباع الرّسول.

### دلالة التّقديم والتّأخير بين لفظتي الذّلّ والخزي:

الخزي أسوأ ما يُصيبُ الكفّار

وفي عبارة ﴿أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ تقديمٌ وتأخيرٌ، حيثُ أُخِّرَ الخزي مع

(1) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 216.

أنّه أسبقُ مِنَ الذُّلّ، ويدُلُّ هذا التّرتيبُ العكسيُّ على مراعاة الكفّار لِما هو الأسوأ، فذكروا الذّلَّ ثمّ ثَنَّوا بالخِزي؛ ليكونَ الأخيرُ هو آخرَ ما يُخشى منه، ولأنّ الخزيَ يجمَعُ كلَّ معاني الذُّلِّ، فكلُّ خزي فيه ذلٌّ.

### توجيه المتشابَه اللّفظيّ:

قطع احتجاج الكافرين بإرسال الأنبياء والمرسلين

تشابه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ مع قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص: 47] في قطع احتجاج كفّار قريش بإرسال محمّد ﷺ، ويَظهَرُ وجهُ الاختلاف بينهما في علاقة العموم والخصوص، فمَوضِعُ القَصص عامٌّ في العقوبة وأنواع المصائب بقوله: ﴿مُّصِيبَةٌۢ﴾ [القصص: 47] نكرة، وهو مُطلَقٌ في الزّمان، أمّا مَوضِعُ طه فقد خُصِّصَ بعذاب الإهلاك والاستئصال، وقُيِّدَ العذابُ بأنّه ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾؛ أي: من قبل بعثة محمّد ﷺ، كما أنّه ذَكَرَ في مَوضِع القَصص سببَ المصيبة وهو ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [القصص: 47]، ولم يَذكرْ في مَوضِع طه سببَ الإهلاك، وأيضًا ذُكِرَ في مَوضِع طه مصيرُ الكفّار، وهو الإذلال والخِزي في نار جهنّم، ولم يَحصلْ ذلك في مَوضِع القَصص.

## ❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### الصُّحُف والكُتُب:

الصُّحُف حافِظةٌ للوحي، والكُتُبُ مَضمونُ الوحي

تجتمِعُ الصُّحُفُ والكُتُبُ في أنّها تتضمّنُ مَعارِفَ وحِكَمًا[1]، وتَفترِقُ الصُّحُفُ في أنّها ما يُكتَبُ فيها[2]، وأنّ الكُتُبَ هي ما تَحمِلُهُ الصُّحُفُ مِن مَضامينَ؛ إذِ الكتابة هي ترتيب رموز الكلام بإحكام[3]، فالصُّحُفُ إذًا ما يُكتَبُ عليه، والكُتُبُ ما يدوَّنُ مِن مَضامينَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 345.
(2) ابن سيده، المحكم: (صحف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتب).

وكأنّ الصُّحُفَ تُطلَقُ على وسيلة حفظ الوحي؛ أي: ما يَحمِلُ الوحي، كما تَصدُقُ على المَظهَرِ المادّيِّ للوحي، ولذلك غَلَبَ على ما نَزَلَ على إبراهيم وموسى اسمُ (الصُّحُف)؛ باعتبار الألواح الّتي كُتِبَ عليها الوحي، فمَن رَجَعَ إلى تلك الصُّحُفِ وجَدَ مَضمونَ الرّسالة.

في حين أنّ الكُتُبَ هي مَضامينُ الوحي ومحتواه، ولأجل ذلك ذُكِرَ (القرآن) في آيات القرآن الكريم بوصف الكتابِ لاحتوائه على بيّنة ما في الصُّحُف الأُولى[1].

### الذّلّ والمَهانة والخزي:

تجتمِعُ مفاهيمُ الذُّلّ والمهانة والخِزي في الضّعف، فالذُّلُّ خضوعٌ وهو ضَعفٌ[2]، والمهانةُ استضعافٌ[3]، والخِزي خذلان واستحياء[4]، وهو ضَعفٌ أيضًا.

**الذُّلُّ ضعفٌ واستسلامٌ واقعيٌّ، والخزي ضعفٌ لخذلان واستحياء، والمهانة توهُّمٌ واستضعافٌ**

ويَفترِقُ الذُّلُّ عنِ المهانة في أنّ الذُّلَّ ضَعفٌ واقعيٌّ، بينما قد لا تكون المهانةُ ضعفًا حقيقيًّا، بل توهُّمَ الضّعفِ، فالمهانة والخزي أمران نفسيّان.

إلّا أنّ الخزيَ ذلٌّ ينجرُّ عنه الخذلان واستحياء لخيبة الأمل، بخلاف المهانة الّتي لا تَتعلَّقُ بحياء ولا خذلان، بل بتوهُّمِ الضّعف لتسلُّطٍ أو استكبارٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 345.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذل).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 523.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (خزي).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
---
227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث
---
الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»